بدونه لا يمكن للعالم أن يوجد:

حديث حول القداس الإلهي

المتروبوليت أثناسيوس (ليماسول)

نقلتها إلى العربية أسرة التراث الأرثوذكسي

بعون الله، سنبدأ أيها الإخوة والأخوات بقراءة وتحليل نص القداس الإلهي بشكلٍ تدريجي. لمَ اخترت القداس الإلهي كموضوع لحديثنا؟ لأن الكنيسة تدعونا جميعاً للاشتراكِ اليومي في السر العظيم الذي يُحتفل به أثناء القداس الإلهي، والغوص في السر العميق لهذا الطقس البالغ القداسة. لا شك في أنه يجب أن نمتلك فهماً جيداً لكل ما نسمعه ونراه في الخدم الإلهية التي نشترك فيها. يجب أن نعرف كيف يُحتَفل بالقداس الإلهي.

يقول آباء الكنيسة القديسون أن العالم سيوجد [سيستمر بالوجود] طالما تتم إقامة القداس الإلهي. وبما أن القداس الإلهي هو أعظم حدث في حياة العالم أجمع، فإن اشتراكنا في القداس الإلهي يمكن أن يسمى أعظم حدث في حياتنا. عندما أقول "اشتراك" فأنا لا أعني مجرد الوقوف في الكنيسة والسماع والمشاهدة ومراقبة ما يجري أثناء الخدمة. كلا، إنني أتحدث عن اشتراكنا الحقيقي في الحدث المركزي من القداس، ألا وهو المناولة، أي الاشتراك في جسد المسيح ودمه المقدسين.

لا يُعقل أن نَعتبر شخصاً ما مسيحياً إذا كان لا يشترك في الجسد والدم المقدسين. حتى أنَّه يوجد قانون ينصُّ على أنه إذا لم يذهب المسيحي إلى القداس الإلهي لثلاثة آحادٍ، فيجب أن يُقطع من جسد الكنيسة، ولا يتم قبوله مجدداً في حضن الكنيسة إلا بعد أن يتوب. لم وضعت الكنيسة قانوناً كهذا؟ لماذا المناولة في غاية الأهمية؟ عبر المناولة نصبح واحداً مع المسيح. لقد ورثنا من جدَّينا الأولين كل ضعف الطبيعة الإنسانية الساقطة. لاحظوا أننا لم نرث ذنب الخطيئة التي ارتكبها آدم منذ آلاف السنين، بل ضعف الطبيعة التي شوهتها الخطيئة، أي آثار سقطة جدَّينا: نحن شهوانيون وتشوبنا الخطيئة، وذهننا مظلم، وخسرنا الذِّكر غير المنقطع لله. والآن علينا أن نصبح أبناء آدم الجديد، المسيح. ذلك يتحقق عبر معموديتنا واشتراكنا المستمر في سر الإفخارستيا الإلهية. ومع ذلك، فإنَّه لكي نشترك في الإفخارستيا، علينا أن نتحضر بطريقة معينة. لا يمكننا أن نتناول إذا كانت هناك معوقات لذلك، مثل خطايا غير مُعترَف بها أو سلوك شرير أو عدائي تجاه الآخرين.

لكي نشترك في الأسرار المقدسة يجب أن نكون حاضرين في القداس الإلهي (على الأقل في القداس الإلهي، ناهيكم عن الخِدَم الأخرى). ويجب أن نكون حاضرين لا كمتفرجين أو مستمعين فقط، بل كمشاركين في الخدمة، كمشاركين في حدث ظهور المسيح. نصبح شركاء في النعمة التي تملأ الكنيسة أثناء القداس

الإلهي. لو كنا نستطيع أن نرى بأعين النفس مقدار النعمة التي تملأ الكنيسة أثناء الاحتفال بالقداس الإلهي، لركضنا إلى الكنيسة، وما كان شيء ليمنعنا من حضور الخِدَم.

لذا فلنبدأ الآن بقراءة نصِّ قداس القديس يوحنا الذهبي الفم.

يبدأ القداس بإعلان الشماس: "بارك يا سيّد". بالنيابة عن كل الناس المجتمعين، يحث الشماسُ الكاهنَ على البدء بخدمة القداس الإلهي.

يبدأ الكاهن معلناً: "مباركة هي مملكة الآب والابن والروح القدس، الآن وكل أوان وإلى دهر الداهرين". بعبارة أخرى، فلتتمجد مملكة الآب والابن والروح القدس الآن ودائماً وإلى الدهور التي لا نهاية لها.

يُحتَفل بالقداس الإلهي خارج نطاق الزمان والمكان، فيقودنا إلى حقيقة من نوعٍ آخر. يقودنا مباشرة إلى الله الآب. لذلك فإننا نبدأ الخدمة بمباركة وتمجيد مملكة الآب والابن والروح القدس، مملكة الثالوث القدوس.

ماذا يمكن للإنسان أن يقول لله؟ ما الذي يمكنه تقديمه له؟ لا شيء. لا شيء مما لدينا هو خاصتنا. والله لا يحتاج شيئاً مما لنا. ما الذي يمكنك تقريبه لله؟ شمعة؟ قنديل؟ قرابين؟ بخور؟ لا يحتاج الله أياً من هذا. كل ما نقوم به إنَّما نفعله في الحقيقة لأجل أنفسنا وليس لأجل الله. حين نبني كنيسة ونزينها بالأيقونات الجدارية، ونرسم الأيقونات ونحتفل بالقداس الإلهي، فإننا نفعل ذلك لا من أجل الله بل من أجل أنفسنا، لأنه ليس الله من يحتاج الكنائس للصلاةِ وتكريمِ الأيقونات المقدسة، بل نحن من يحتاج هذا.

ولكنَّ هنالك شيئاً واحداً يمكننا أن نقرّبه لله، مع أنَّه لا يحتاج ولا حتى لهذا. ما هو هذا الشيء؟ إنَّه استعداد نفسنا لتمجيده وشكرِه ومباركةِ اسمه إلى جميع الأدهار، حسب قول كاتب المزامير: " أُبَارِكُ اسْمَكَ إِلَى الدَّهْرِ وَالأَبَدِ " (مزمور ١٤٥:١). ليس لدى الإنسان ما هو أعظم من مباركة اسم الله. ولكون الإنسان حرًا، فإن لديه، لسوء الحظ، فرصة مأساوية، ليس فقط لمباركة اسم الله، بل للتجديف على اسمه أيضًا.. يتوقف كل شيء على إرادة الإنسان وما يختاره لنفسه.

لقد خلقنا الله انطلاقاً من محبته اللامتناهية، مريداً لنا أن نتمتع بمحبته. وكيف يمكننا التمتع بهذه المحبة؟ عبر تمجيد اسمه. إنه لامتيازٌ عظيم قد منحنا إياه الله. ليس عبثاً أن يُدعى القداس الإلهي أيضاً "الإفخارستيا الإلهية"، وهي تعني باليونانية "الشكر". يمكننا القول إنَّ لدينا موقفاً صحيحاً تجاه الله حين لا نكتفي بالصلاة إليه طالبين أن يرحمنا حين نرى أنفسنا في أعماق الشر، بل وأيضاً حين نمجد ونشكر خالقنا. إن التسبيح غير المنقطع لاسم الله هو ما يحررنا حقيقةً من قوة الخطيئة ويقودنا تدريجياً إلى الكمال، بصفته تعبيراً عن نضجنا الروحي.

إن تسبيح الله مهم بشكلٍ خاصٍ للناس في أيامنا هذه التي يعاني فيها الجنس البشري من آفة اليأس والاعتلال العصبي. جميعنا عصبيون، نصيح لأتفه الأسباب: "لا تلمسني!" "دعني وشأني!". أريدكم أن تعلموا أنَّه حتى الدّارسون المعاصرون قد أثبتوا هذه الحقيقة الروحية. إذا تعلم الإنسان أن يردد باستمرارٍ: "المجد لك يا الله! المجد لك يا الله!"، فإن حياة هذا الإنسان تتغير جذرياً، حتى ولو كانت لديه آلاف المشاكل والمصاعب والبلايا المختلفة. إن عبارة "المجد لك يا الله!" تفعل في النفس كالبلسم الشافي، محولة المرارة والخل الذي يملأ نفوسنا إلى حلاوة لا توصف. يتحول الخل إلى نبيذ حلو، والعكس صحيح: التبرُّم والامتعاض واليأس والكآبة، حين نبدأ نقول: "آه، كل شيء بشعٌ بالنسبة لي. لا أستطيع القيام بذلك بعد الآن. لم تعد لدي القوة. من الأفضل أن أموت عوض العيش بهذه الطريقة"، فإنَّه حتى ولو كان هناك قليل من النبيذ الحلو في نفوسنا، فإنَّه سيتحول في وقتٍ قصيرٍ إلى خل نتيجة تذمرنا. لذلك فإنه من المهم جداً للإنسان أن يتمكن من تسبيح الله.

إن تيبيكون الكنيسة ينصُّ على أن يُخدم القداس الإلهي وقوفاً – خلال القداس الإلهي، يقف كل من الكاهن والرعية. لا نقوم بسجداتٍ إلى الأرض كما في أديان أخرى، بل نقف منتصبين ونحدق بالله الآب وجهاً لوجهٍ مثل الأطفال. يريدنا الله أن نكون أبناءه، لا عبيده، لذلك فإننا نصلي وقوفاً أثناء القداس، ونحني ركبنا فقط في أوقاتٍ استثنائية معينة خلال الخدمة.

إننا نمجد الله، وهو يستجيب لتسبيحنا بنعمته.

أكرر أننا نحن المسيحيين ننعم بأعظم امتيازٍ لمباركة اسم الله، ومباركة مملكة الآب والابن والروح القدس. إن هذا التسبيح يُخرجنا من عنصر هذا العالم ويقودنا إلى حقيقة أخرى – إلى حقيقة الله.

"مباركةٌ هي مملكة الآب والابن والروح القدس". لماذا تتكلم هذه العبارة عن المملكة، ولماذا يدعى الله ملكاً؟ لأنه في القِدم، حين كان ملكٌ يملك على مدينة، فإنه كان يملك على كل ما فيها. كل ما في المدينة كان ملكاً له، وجميع سكان المدينة كانوا رعاياه. لذلك عندما يسود المسيح في نفوسنا، فإنَّ كل ما نملكه يخصُّه هو: الذهن والقلب والجسد وكل كياننا. كل شيء يتقدس حين يسود الله على نفس الإنسان. لا يوجد شيء، بل ولا يجوز أن يوجد شيء في حياتي خارج أبواب مملكة الآب والابن والروح القدس. علينا أن نكون متيقظين لنضمن أن كل شيء في حياتنا، من الألف إلى الياء، مُنارٌ بنور هذه المملكة. يجب أن يشهد ضميرنا أن المسيح يسود علينا، وأننا في مملكته.

إني أتذكر حادثة من حياتنا الرهبانية. أخبرنا شيخنا الدائم الذكر، الأب يوسف (فاتوبيذي)، أنه حين كان راهباً مبتدئاً لدى القديس يوسف الهدوئي، كان هو والإخوة يذهبون كلَّ مساءٍ إلى قلالهم للقيام بقانون صلاتهم المسائي، فكان يسأل نفسه: "ما الذي فكرت به وقلته وفعلته اليوم؟ هل كان مختوماً ببركة الله؟ هل أخذت بركة شيخي؟ هل أخفيت شيئاً عن شيخي، حتى ولو بشكلٍ لاإرادي؟". وإذا شهد ضميره بأنه لم يُخفِ شيئاً عن الشيخ، وأنه قام بكل شيء ببركة الشيخ، عندها كان يبدأ الصلاة بهدوء. وأمَّا إذا وبَّخه

ضميره حول فِعلٍ قام به انطلاقاً من مشيئةٍ ذاتية، عندها كان يذهب مباشرةً ويخبر الشيخ بكل شيء، لكي لا يمنع أيُّ شيءٍ النعمةَ من المجيء إليه أثناء قانون صلاته. يجب أن أقول إنَّ جميع آباء الكنيسة [القديسين] بالعمومِ كانوا يقظين وصارمين للغاية فيما يخص نقاوة ضميرهم.

سأخبركم بقصتين من حياة أحد أعظم النساك المعاصرين، والذي كان ما يزال غير معروفٍ كثيراً حينها لأنه لم يستقبل زواراً. فقط قليلٌ من الرهبان كانوا يعرفونه، بمن فيهم أخويتنا، لأنه كان أخاً روحياً لشيخنا. إنني أتحدث عن القديس أفرام الكاتوناكي، العملاق الروحي العظيم، المعروف خاصةً من أجل حفظه الصارم لضميره. كان صارماً لدرجة لا تصدق بخصوص ضميره. لم يقبل ولا حتى أصغر مساومةٍ بخصوصه. لم يسمح لنفسه بأدنى انحراف عن قانون الضمير، بل راعاه روحاً وحرفاً. ولأجل ذلك منحه الله فيضاً من النعمة.

في إحدى المرات أتى الأب أفرام من كاتوناكيا إلى الإسقيط الجديد حيث كنا مقيمين. تحدث إلى شيخنا، وقبل المغادرة أراد أن يكتب شيئاً ما. أعطاه شيخنا قلماً. كان قلماً عادياً، وليس قلم "باركر" فارهاً، بل قلم "بيك" عادياً. في ذلك الوقت كانت تلك الأقلام تصبح واسعة الانتشار. كتب الأب أفرام ملاحظته وأعاد القلم قائلاً: "أيها الأب يوسف، يا له من قلمٍ جميل!". فأجاب شيخنا مباشرة: "خذه أيها الأب. لدي واحد آخر. وعندما أذهب إلى العالم في عملٍ ما يمكنني شراء واحدٍ آخر". (علي أن أضيف أن الأب أفرام لم يذهب مطلقاً إلى العالم). أخذ الأب أفرام القلم وودَّعنا وعاد إلى مكان نسكه في كاتوناكيا. كان ظلامٌ حين غادرَنا. كانت المسافة كبيرة من الإسقيط الجديد إلى كاتوناكيا، وكان الطريق صعوداً. لم يكن الطريق عبارةً عن نزهة ممتعة على طول الشاطئ، بل صعوداً وهبوطاً على طول الممرات الجبلية. كان الطريق يستغرق ساعة ونصفاً أو ساعتين على الأقل في طقس جيد ووتيرة سريعة.

حل الليل وكنا نقوم بقانون صلاتنا المسائي، بحسب عادتنا، باستخدام مسبحة الصلاة. حوالي منتصف الليل كان هناك طَرقٌ على باب القلاية. من عساه هذا الذي يتجول في الأرجاء في مثل هذه الساعة؟ فتحنا الباب وإذ به الأب أفرام واقف عندالعتبة. دخل وقال متوجهاً بالكلام إلى شيخنا:

- "أيها الأب يوسف، خذ القلم. لا أريد أن أقتنيه".
- "ماذا حصل؟"
- "أرجوك أن تستردَّه. أخذته بدون بركة. وبما أنني تصرفت بحسب مشيئتي الذاتية فأنا الآن لا أستطيع خدمة القداس الإلهي. أشعر بأن هناك ما يعيق الخدمة"

أقنع الأبَ يوسف باسترداد القلم. أترون، كيف أن الأب أفرام أتى لرؤيتنا، ثم غادر إلى كاتوناكيا، ثم عاد إلينا، ثم ذهب مجدداً إلى كاتوناكيا. فكروا بمقدار الوقت الذي قضاه على الطريق. قضى الليل بطوله عملياً. كان يمكن لشخصٍ آخر بمكانه أن يقول: "حسناً، لا يهم. سأرجع القلم غداً. ليست مصيبةً إذا بقي معي في القلاية الليلة. لن أستخدمه". ومع ذلك فإن الأب أفرام لم يتمكن من فعل ذلك – لقد شعر بأن

ارتباطه بالنعمة الإلهية داخل نفسه قد انقطع لأنه سمح لنفسه بالقيام بأمرٍ، كان بحسب رأيه، ترفاً ومشيئة ذاتية. فسّر الأمر للأب يوسف بأنَّه لم يكن قد حصل على بركة شيخه ليأخذ القلم. مع أنَّ شيخه الأب نيكيفوروس كان في ذلك الوقت مريضاً بالألزهايمر. كان الأب أفرام راهباً مبتدئاً مثالياً، مما جعله قديساً عظيماً من قديسي زماننا.

في مناسبةٍ أخرى، نزل الأب أفرام من كارولیا إلى المرفأ ليرسل رسالة. عندما توقف قارب عند الرصيف، صعد إليه الأب أفرام. كان سائق المركب يتحدث حينها إلى راهب آخر ولم يلحظ وجود الأب أفرام. أعطى الأبُ أفرام الرسالة إلى أحد الركاب، ولكنْ قبل أن يتمكن من مغادرة المركب كان السائق قد ابتعد به عن الرصيف. طلب منه الأب أفرام قائلاً: "يا مبارك، دعني أخرج من المركب". كان سائق المركب شخصاً "مدنياً" (ليس راهباً)، بسيطاً وفظاً وعرضةً لفورات الغضب. غضب من الأب أفرام لأنه كان عليه العودة إلى الشاطئ لإنزاله، وبدأ بالصراخ عليه وشتمه. عندما عاد الأب أفرام إلى قلايته، بدأ ضميره يوبخه لأنه أحزن سائق المركب. فكر في نفسه: "لقد أحزنته وأوقعته في التجربة. كيف لي أن أخدم القداس الإلهي الآن؟". وفي منتصف الليل توجه من كاتوناكيا إلى إسقيط القديسة حنة حيث كان سائق المركب مقيماً. الطريق في ذلك المكان منحدر وخطير، ومخيف حتى بمجرد التفكير به. ومن ثم كان عليه في طريق العودة أن يتسلق صعوداً. مع ذلك فقد وصل الأب أفرام إلى منزل سائق المركب وقام بمطانية أمامه وقال: "سامحني. لقد أحزنتك هذا الصباح".

أريد بهذه الأمثلة أن أريكم بأن شعب الله يريدون شيئاً واحداً – أن يكون الله مَلكاً على كل ما يقومون به في حياتهم، على كل كيانهم. لا يحتملون أن يكون هناك شيء في حياتهم خارج بوابات ملكوت الله. ونحن الذين نحيا في العالم يجب أن ننتبه إلى ذلك بشكلٍ خاص. يتولد لدي انطباعٌ في بعض الأحيان أنَّه بالنسبة لكثيرين منا، تبدو النفس وكأنها مقسمة إلى عدة حجرات منفصلة بفواصل داخلية. حجرة لتقوانا وحياتنا في الكنيسة. حجرة أخرى لحياتنا الدنيوية، ونتصرف فيها بشكلٍ مختلفٍ تماماً كما لو أننا نضع قناعاً مختلفاً. الحجرة الثالثة لعملنا. أحياناً ترى شخصاً ما في الكنيسة – يكون رقيقاً، هادئاً، والحديث معه يبعث على السرور. ومن ثم تراه في العمل – تجده كئيباً مكفهراً لا يمكن الاقتراب منه والتعامل معه، حتى أنك ترغب بأن تقول له: "ابتسم فقط! ماذا دهاك؟ كنت مختلفاً تماماً في الكنيسة". يكون المرء شخصاً مختلفاً في المنزل مع عائلته، ومختلفاً أثناء القيادة. السيارة أيضاً حجرة من حجرات نفسه. كم من مرة سمعت في الاعتراف: "يا أبانا، غالباً ما ألعن وأشتم السائقين الآخرين أثناء القيادة". من المستحيل أن ترجوَ أن تسكن نعمة الله في نفسك إذا كانت مقسمةً إلى أقسامٍ وحجراتٍ متعددة. والأهم من ذلك، عليك أن تتحلى بالاتحاد الداخلي وعدم التجزؤ. لسانك وذهنك وأفعالك – كل ما فيك يجب أن تظلله نعمة الله.

الإنسان الذي حاز نعمة الله لا يتغير بتغيُّر الظرف أو البيئة. كل ما يخصه يبقى نفسه بدون تغيير – أفكاره وكلماته وأفعاله، السرية منها والظاهرة، المرتكبة سراً أو علناً. شدد آباء الكنيسة القديسون على أنه يجب ألا نكون متقلبين ومتغيرين، أياً يكن من يقف أمامنا، حيثما وجدنا أنفسنا. سواء كنا أمام جمهورٍ من الملايين أو لوحدنا في خصوصية، علينا أن نبقى نحن ذاتنا ونتصرف بالشكل ذاته. حين تكون وحيداً تشعر وكأن العالم بأسره يشاهدك. وعندما يكون العالم كله يشاهدك تشعر وكأنك لوحدك. في كل مكان وفي أي مكان، اشعُر بحضور الله ولا شيء آخر سواه.

في مواجهة أقوياء هذا العالم، أولئك الذين تعتمد عليهم رفاهيتك المادية، أو أولئك الذين تخافهم، لا تكن متملقًا؛ لا تغير سلوكك. تصرف بنفس الطريقة مع الجميع، بشكل ملائم – كن متواضعاً. لا أتكلم عن عقدة نقص، بل عن التواضع النبيل لأبناء الله. إن سلوكاً كهذا يترك انطباعاً عميقاً لدي أنا شخصياً. لقد لمست هذا التواضع لدى نساكٍ قديسين معاصرين قد أتت للقائهم شخصياتٌ رسمية رفيعة المستوى: رؤساء وزراء، رؤساء دول، وأناسٌ ذوو شهرة عالمية. عند تعاملهم مع زوارٍ كهؤلاء لم يكن هناك ظلُّ تغييرٍ في سلوك النساك، ولا ظل تزلف أو تملق. قاموا باستقبال جميع الزوار بنبلٍ روحي، وتحدثوا إليهم بغض النظر عمَّن كان أولئك الزوار. كانوا بعيدين كل البعد عن إرضاء الناس. ولأجل هذا السبب عينه سكن الله في نفوسهم وفي كيانهم كله. يمكنكم أن تلمسوا النعمة التي كانت تملؤهم. أتذكر أني حين راقبت أولئك الأشخاص القديسين، رأيت أنَّه حتى ثيابهم كانت تنضح بالنعمة. ارتدوا أبسط وأقدم ثيابٍ وأكثرها رثاثة. ولكن ثياب النسَّاكِ وقلاليَهم وكل مقتنياتهم كانت تشع بالنعمة.

ينطبق الأمر ذاته على النساك القدماء. يقالُ على سبيل المثال عن القديس باسيليوس الكبير إنَّه كانت لديه عرجة خفيفة. يقال الأمر ذاته عن مواطنيه الكبادوكيين: كانوا جميعاً يعرجون. وبالتالي فقد قلدوا القديس! كم كان تأثيره عظيماً عليهم! كان القديس باسيليوس يعرج بسبب مشكلة في قدمه، ولكن الكبادوكيين عرجوا تمثُّلاً به، لأن النعمة الكامنة في نفسه تركت انطباعاً لديهم حتى أنهم قلدوا حتى سلوك القديس الخارجي.

والنساك القديسون المعاصرون تركوا انطباعاً عميقاً لدى زوارهم حتى أنه يمكنك أن ترى كيف بدأ الناس بتقليدهم بأمورٍ خارجية. السبب وراء ذلك الانطباع هو أن النعمة العظيمة انسكبت، لا من النساك القديسين فحسب، بل وأيضاً من كل ما كان يحيط بهم: من ثيابهم، أو بالأحرى من الخرق التي كانوا يرتدونها، من قلاليهم، من جذوع الأشجار التي استخدموها عوض الكراسي، ومن كل شيء آخر. هذا يشهد على أن المرء قد جعل المسيح مَلكاً على حياته، على كيانه بأكمله – ذهنه وقلبه وكلماته وأفعاله. في إحدى المرات، شربَ شخصٌ ما كوب ماء من الشيخ باييسيوس، ولاحقاً قال إنه لم يشرب أبداً ماءً لذيذاً كهذا في أي مكان. أو مثلاً، كثيراً ما يمدح السواح طعام الدير وكم هو لذيذ. وكيف هو مُعَد؟ إنَّه مُعدٌّ بالماء فقط بدون زيت. النعمة هي ما تجعل كل شيء رائعاً للغاية.

عليَّ أحياناً أن أذهب إلى مناسباتٍ متنوعةٍ في منازل غنية أو فنادق فارهة. ترون كل شيء فاخراً بشكل رائع هناك وتفكرون: "كل هذه الرفاهية لا يمكن مقارنتها حتى بقلاية الشيخ باييسيوس الحقيرة". كيف كانت قلايته؟ حجرة صغيرة بأرضية ترابية. صنع السرير بنفسه من بعض الألواح، وكان أشبَه بالتابوتٍ منه بالسرير. وصنع الكُرسي بنفسه أيضاً. ولأجل الكتابة استعاض عن المكتب بلوحٍ خشبي كان يضعه على حضنه. وكانت لديه أيضاً ساعة قديمة لتَتبُّع الوقت، وبعض الأيقونات الورقية على الجدار. كل شيء قد اسودَّ من دخان الموقد والشموع التي كان يشعلها طيلة الوقت.

في إحدى رحلاتنا إلى روسيا، زرنا متحف التراث ورأينا غرف الإمبراطورة كاثرين. يا إلهي! أي ترف لم تُحط به هذه المرأة نفسها! لا يمكنني حتى تخيُّل كيف استطاعت أن تعيش في وسط كل هذا. بالطبع قلت: "لو أُغلِق عليي في غرفة كهذه لليلة واحدة لفقدت عقلي".

حين تكون نعمة الله غائبةً يكون كل شيء ميتاً ومتعباً. إنَّ أجمل قصرٍ، إن لم يكن الله فيه فهو ليس بقصر، بل هو مقبرة. إن حياةً في مكانٍ كهذا ستقتلك. دع الله يتواجد في كوخ بسيط (كان هناك الكثير منه، وهو مصنوع من غرفة واحدة مشتركة حيث كانوا يطبخون ويأكلون وينامون) ضع أيقونة هناك وقنديلاً وابدأ بالصلاة، وسيصبح هذا الكوخ مثل الفردوس – فردوس جميل جداً حتى أنك ستتعجب قائلاً: "آه لو عرف جميع الناس كم من الفرح والبركة موجودة في هذا الكوخ!" حين يكون الله حاضراً يصبح كل شيء مباركاً، لأن الله يسود كل شيء.

"مباركةٌ هي مملكة الآب والابن والروح القدس" - مملكة الثالوث القدوس الذي باسمه اعتمدنا – "الآن وكل أوان وإلى دهر الداهرين". كثيراً ما نسمع العبارة الأخيرة خلال الخِدَم الإلهية، بما فيها القداس الإلهي. لماذا نكرر هذه العبارة كثيراً؟ لأن كل شيء نخدمه في القداس الإلهي لا نهاية له، وإنما هو أبدي. إن ما نحتفل به في القداس ليس أمراً اعتيادياً أو أرضياً، بل أمراً أبدياً لا يفنى. حين أفتح فمي وأبارك اسم الله، فإن هذه البركة أبدية وغير منتهية. الكلمة التي تخرج من فمي لا تموت، ولا يحدُّها شيء.

شاركَني صديقٌ لي، وهو كاهن راهب، بإحدى خبراته الروحية. أخبرني بما حصل معه بعد أن منحه الله موهبة الكهنوت وبدأ بخدمة أول قداس إلهي له. كان واقفاً أمام المذبح في كنيسة آثوسية صغيرة (في الأساقيط في جبل آثوس تكون الكنائس عادةً صغيرة جداً، والمذبح يكون أيضاً صغيراً وعادةً ما يكون في آخر الهيكل)، وردد الإعلان الافتتاح: "مباركة هي مملكة الآب والابن والروح القدس، الآن وكل أوان وإلى دهر الداهرين". ما إن نطق بهذا الإعلان، وفي تلك اللحظة عينها وبنعمة الله، أُعطيَ أن يرى بالروح كيف انفتح سقف الكنيسة وكيف بلغت كلماته دهر الداهرين. لقد اختبر حساً من الأبدية في تلك اللحظة. تخيلوا أن تنفتح أمامنا فجأة نافذة إلى الأبدية التي لا نهاية لها، والتي يمكننا مع ذلك أن نتأملها – ليس كما نرى عادةً الأغراض من حولنا – فقط إلى درجة محددة، ومن ثم يختفي كل شيء عن أعيننا، لأن قوة الرؤيا محدودة. شعر صديقي بخوف مقدس: ما أعظم أن ينطق المرء بكلماتٍ تمتد إلى دهر الداهرين.

الكلمة لا تفنى، خالدة، لا نهائية. إن مباركة اسم الله تنطوي على نعمة عظيمة. دعونا مع ذلك نضع ما يلي في اعتبارنا: ليست مباركة اسم الله فقط ما يمتد إلى دهر الداهرين، بل وأيضاً كل كلماتنا الأخرى (الكلام البطال، التجديف، الدعابات) تمتد إلى دهر الداهرين. كم علينا أن نكون منتبهين إلى كلماتنا!

بعد وقتٍ قصير من سماعي هذه القصة من صديقي، قرأت كيف أن أحد العلماء أثبت أن الكلمات التي يقولها الناس لا تختفي. من الممكن، على حد قوله، اختراع آلة يمكنها التقاط كل كلمةٍ قد نُطِق بها يوماً ما، فيمكننا إذاً أن نسمع الكلام الذي نطق به المسيح نفسه منذ ألفي عام. لا أظن أنَّه سيكون أمراً غريباً إذا ما تم اختراع آلةٍ كهذه فعلاً وسمعنا صوت المسيح. ولكن في كلتا الحالتين فالأمر غير مهم بالنسبة لنا. فالمعنى يكمن في أمر آخر: بما أن تمجيدنا لاسم الله يمتد إلى اللانهاية، فنحن أنفسنا نصبح بلا نهاية، وهذا يجعلنا ندرك كم من المهم بالنسبة لنا أن نملك الفرصة لنبارك الله وندخل إلى حقيقة أخرى مختلفة – حقيقة القداس الإلهي. كما سبق وقلت، فإن القداس الإلهي هو أهم عملٍ للكنيسة، والتي توجد لكي تحتفل بالقداس الإلهي. العمل الرئيسي للكنيسة هو القداس. وكل أمرٍ آخر هو ثانوي ويتم القيام به فقط لكي يأتيَ بنا إلى القداس الإلهي، إلى خدمة الله. أما بالنسبة لكل شيء آخر، فإذا تمَّ فهذا جيد، وإذا لم يتمَّ، فلن يضيع العالم بدونه.

إلا أن العالم لا يمكن أن يوجد بدون القداس الإلهي

Source: Metropolitan Athanasios of Limassol. Without Which the World Cannot Exist. A Talk On the Divine Liturgy. Translation (from Greek) by Jesse Dominick. Pravoslavie.ru. 6/23/2021. https://orthochristian.com/140081.html